الدكتور محمد السعدى فرهود

زاملت الدكتور محمد السعدى فرهود فى مراحل الدراسة التعليمّية بالابتدائى والثانوى وكلية اللغة العربية ومعهد التربية العالى، ثم زاملته فى مرحلة التدريس الجامعى مدرسًا وأستاذًا، فلم أر تغيّرًا فى أخلاقه منذ عرفته، مما أكد لى أن الطبع الإنسانى المفطور على جِبِلَّتِه لا يتغيّر بتغير الأحوال والملابسات، وما يُظَن أنه تطويرٌ وانتقال، هو شىء ظاهرى مفتعل، إذ أن الجوهر الأصيل يظل محتفظا بمعدنه، فكل ما يراه خلفاؤه اليوم من هدوئه ورزانته وسعيه فى الخير كان واضحًا عند الطالب الصغير فى المعهد الابتدائى بالأزهر، هكذا رأيت ولمست!

ولقد كان مع هذه السجايا الخلقية غيوراً على سمعته العلمية، إذ كان حريصًا كل الحرص على أن يكون الأوّل بين زملائه، وقد تحقق له ذلك فى أكثر السنوات، وفى السنوات التى جاء فيها الثانى كان يأخذ نفسه بأسباب اللوم، إذ يكون أمامها مقصرًّا، وأنا أعلم أن درجات الشفوى بالأزهر قد تُعطَى لمن لا يستحق فيسبق الكادح الجاد، ولكن الله يعوض كثيراً فيما بعد..

أول ما عرفت الطالب محمد السعدى فرهود كان فى حفل عام أَقامَهُ معهد دمياط الدينى فى مناسبة المولد النبوى الشريف، وقد حَضَرَهُ محافظ الإقليم وفريقٌ من علية القوم، وقام كبار الأساتذة يُلقون كلماتهم الموسميّة، فيُمتعون، ثم قام الطالب محمد السعدى ممثّلا لزملائه، فألقى كلمة ضافية، جذبت إليها الأنظار، إذ ترك المعانى التقليدية التى تُكرّر فى هذه المناسبة، والتى توسّع فيها بعضُ من سبقه من الأساتذة المتكلمين إلى عناصر جديدة تتصل بأخلاق صاحب السيرة المطهّرة،

وكان إلقاؤه يزيّنُ بيانه، فخرج السامعون يثنون عليه تفكيرًا وإلقاءً وهدوءًا، ومنْ يومها طابَ لى أن أعرف الكثير عنه.

ذهبنا إلى معهد الزقازيق الثانوى، فَحافَظ محمد السعدى على أوّليته المعهودة، وأعدَّ نفسه ليكون أوّلَ الشهادة الثانوية على القطر جميعه، ولكنّ ظروفاً سياسية عاقتْه عن الالتحاق بالدور الأوّل، ظروفاً لا شأن له بها، إذ أنّ غِيرته الإقليمية دفعتْه إلى مناصرة زعيم سياسى من أبناء بلدته (الزرقا)، وأتت الرياح بما لا يَشتهى، فذهب عهدٌ وجاء عهد، يُنَاوِئ الزعيم، وتأخر السعدى عن الالتحاق بدار العلوم التى كان مصممًا على دخولها، فانتسب لكلية اللغة العربية غاضباً، ولم يدْر أن إرادةَ الله فوق كل إرادة، إذْ كان فى طىّ الغيب أن يُصبح محمد السعدى عميدًا لكلية اللغة العربية، فمديرًا لجامعة الأزهر، فهلْ أقول له اليوم: «وما تشاءون إلا أن يشاء الله».

برز السعدى فى كليته الأزهرية، وكان رئيسًا لجماعة «الضاد» التى أسسها الأستاذ الدكتور أحمد الشرباصى رحمه الله، أخذ الرئاسة بعد تخرج الدكتور الشرباصى، فزاول النشاط الأدبى، وسار له بالكلية ذكر حميد، وأشير إلى أن أحد أساتذته كان يعهد إليه بتحضير الدرس الأدبى ليلقيه على الطلاب تمرينًا للنابهين، وهو سلوكٌ تربوى ناجح، لأن الطالب حين يقفُ أمام زملائه موقف الأستاذ يشمر عن ساعد الجد، ويحاول أن يملأ الموقف قدر ما يستطيع، وقد ألقى الطالب محمد السعدى عدة محاضرات عن الشاعر العباسى بشَّار بن بُرْد، حازت إعجاب أستاذنا الكبير أحمد شفيع السيد رحمه الله، فأثنى عليه فى الملأ المشهود، وتنبأ له بمستقبل زاهر.. ثم مضت الأيام فأبرزت تحقيق نبوءته!..

وانتقلنا بعد الكلية إلى معهد التربية العالى بالإسكندرية، فدرَسْنَا الجديد من علوم النفس والتربية والاجتماع مما لم نكنْ نألفه فى الدراسة الأزهرية، وأذكرُ أن الدكتور رياض عسكر أشار فى بعض محاضراته إلى «مجلس الآباء» وضرورةإنشائه بالمدارس المصرية تقليدًا للمدارس الإنجليزية، فأعْجبتِ الفكرة الطالب محمد السعدى فرهود، وكتب مقالاً تربويا نشرته جريدة الأهرام فى مكان

openkanali.com

بارز، وتوالى الرد عليه، لدرجةٍ أدهشت الدكتور عسكر، وتمنى أن يُرزق من الطلاب مَن يُذيعون الرأى التربوى على نطاقٍ جهير. . ثم تفرقنا بعد التعلّم، ومضت عدة سنوات حتى جاءنى خطاب رقيق من الأستاذ محمد السعدى فرهود يعلن أنه يكتبُ رسالة الدكتوراه عنْ شعر الأستاذ عبد الرحمٰن شكرى، وقد علم أن لَدَىَّ بعض رسائله الخاصة، ويريد الاطلاع عليها، فربما يكون بها ما يضىء جانبًا من نواحى الشاعر المتعدّدة، وقد سارعتُ بتلبية طلبه، فصور ما أراد من الرسائل، وبعثها إلى ثانية. والغريب أنى بعد عشرين عامًا من هذا الموقف، احتجتُ إلى بعض الرسائل، وبحثت عنها دون جدوى، ثم حدّثْتُ الدكتور السعدى بذلك، فقال: إن الصور محفوظة لديه، وتكرم بإرسال نسخة منها، ولولا ذلك لفقدتْ إلى الأبد، ومنها تفويض من الشاعر لى بطبع مؤلفاته نثرًا وشعرًا.

لم يقتصر السعدى على مراسلتى بشأن رسائل شكرى، فقد راسل كثيرًا من الأدباء فى العالم العربى، حتى جمع من الرسائل مايصلح أن يكون كتابًا، وأذكر أنه راسل الأستاذ فؤاد صروف رئيس تحرير مجلة المقتطف، وكان حينئذ قد ترك القاهرة إلى لبنان، فأمده بعدة رسائل تضم أنباء أدبية ونظرات علمية، وهى لاتزال لدى الصديق، كما أنه حين كتب رسالة الماجستير عن (عبد الله النديم) لم يدع أحدًا يعرف اتصاله بأسرته إلا سافر إليه، وأخذ من أخباره ماكان مجهولا، إذ زار الإسكندرية لذلك عدّة مرات. . وقد كتب الكثيرون عن النديم كتابة من رجع إلى أثاره وحدها، ولكن رسالة السعدى تضمنت أشياء جديدة عمل على جمعها، ثم تحرى مدى صوابها، وحازت تقدير لجنة المناقشة بمعهد الدراسات العربية.

وقد زاملت السعدى، إذْ كنا مدرسين بكلية اللغة العربية بالقاهرة حينًا من الدهر، فاتضح لى من نشاطه جانب إدارى كنتُ أجهله، لأنه مع إكبابه على التأليف الأدبى كان يد الإدارة فى شئون الامتحانات، وموضع استشارتها فى أحوال الطلاب، ولجان الشباب، وسفر الرحلات، ومازال يجمع بين الإدارة والتدريس والتأليف العلمى جمعًا متوازنًا دقيقًا، وذلك يتطلب منه مزيدًا من الجهد الجاهد، وثِقَةُ المحيطين به فى مواهبه تدفعه إلى مواصلة هذا الجهد فى احتفاء.

وقد تنوعت مؤلفات الدكتور السعدى بالكلية، لأن المواد التى قام بتدريسها كانت تقتضى هذا التنوع، ولكن إبداعه الأول كان فى حقل النقد الأدبى، حيث أصدر عدة كتب مهمة تشمل خطوات النقد فى جميع عصوره، وقد فاَجأ طلابه بنظام من التأليف فى تاريخ النقد الأدبى القديم لم يألفوه من قبل، حيث درجوا على أن يكون تاريخ النقد وفق توالى العصور، اقتداء بما صنعه رائد التاريخ النقدى فى مصر المرحوم الأستاذ طه أحمد إبراهيم، حيث بدأ بحديث النقد فى العصر الجاهلى، وتابع العصور حتى انتهى إلى العصر العباسى. والحق أن هذا الكتاب التليد لايزال يحمل بريقه اللامع منهجًا وأسلوبًا واستنتاجًا، وقد حاكاه أناسٌ - أو قل إنهم سرقوه - ثم أخذوا يعيبونه، وكأنهم لم يتكئوا عليه كل الاتكاء، وتلك من محن العلم فى العالم العربى، أما الدكتور فرهود فقد درس كتاب الأستاذ طه أحمد إبراهيم، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم رأى أن يؤرخ للنقد على غير مذهبه، فأصدر كتابه (اتجاهات النقد العربى) متحدثًا فى المقدمة منحى الأستاذ طه أحمد إبراهيم، ثم معقباً بقوله:

«وآن لنا أن نقوِّم هذا الاتجاه، لأنه يسمح بقيام فواصل بين نقود العصور، وإطلاق القواعد العامة على هذه العصور، مثلما قالوا: إنّ النقد فى العصر الجاهلى نقدٌ فطرىّ، وفى عصر صدر الإسلام نقدٌ ذوقى، وفى الدولة الأموية نقدٌ جزئى، واختلف فى الشام عنه فى العراق، وهذه فى تقديرنا تفرقةٌ لا مسوغ لها، فقد تداخلت النقود، وتداخلت العصور الأدبية، ولم تتمايز هذه أو تلك تمايزا يحتم الفصل بينها، وهذا تفسير الاتجاه إلى تناولنا الموضوعى لهذه الأمور، غير مغفلين ما يفرضه الترتيب الزمنى على حركة التاريخ النقدى.

ووفقًا لهذه الخطة الجديدة كتب الباحثُ فصولاً متتابعة عن اتجاهات النقد العربى، فتحدث عن النقد الاستحسانى، والنقد الانتخابى، والنقد الاجتماعى. والنقد الوصفى، والنقد على سبيل الموازنة، ثم جاء الفصل الأخير ليلم بأهم النظرات النقدية التى تفرقت فيما سبق من الأبواب. والكتابُ بهذا المنحى الجديد طريف كل الطرافة فى بابه.

أما أهمّ كتاب أصدره الدكتور السعدى فى حقل النقد فهو كتاب (قضايا النقد الأدبى الحديث)، وقد أفردتُ له مقالاً خاصًا بتحليله فى مجلة الأديب اللبنانية (أكتوبر سنة ١٩٧٠) وجاء فيه ملخصًا:

«ألمَّ الكاتب إلماماً موجزًا فى مطلع بحثه بما سبق أن أرخ به الدارسون حركة النقد العربى، ثم اتجه إلى أبواب معاصرة، بدأها بالحديث عن تأثر النقد الأدبى بعلوم النفس والاجتماع والجمال، وختَم كل فصل بتعقيب يرجح فيه ما يرتضيه من الآراء المتضاربة فى حيدة تامة لا تعرف الانحياز لمذهب معين، ولكى يصل إلى ما يريده من حديث النقد المعاصر عبر ما قبله من الاتجاهات التراثية عُبورا موجزاً، ولكنه مستوعب، ثم تفرغ للبحث فى قضايا التجربة الشعرية والوحدة العضوية، ومُتتبعًا بذورها فى كتب النقد القديم، حتى انفسح المجال لرصد التيارات المعاصرة، إذ تحدثَ عن خليل مطران، وعبد الرحمٰن شكرى، والعقاد، والمازنى! وقد لاحظتُ فى مقالى بمجلة الأديب أنه قد بَخَس مطران حقه حينَ جعله ينحاز إلى جانب شوقى فى منحاه، لأن اتجاه مطران الإبداعى مسلم به، وهو الرائد الحقيقى لحركة التجديد فى الشعر المعاصر. إذا أردنا أن نقرر الحقيقة دون انحياز».

هذان الكتابان البارزان فى نتاج الدكتور السعدى كانا موضع تعليقات لى فى دروس النقد وأنا أجاوره بمدرجات الكلية، وقد تناقل الطلاب هذه التعليقات، فكنت أنتظر من صديقى أن يتأثر بعض الشىء بموقفى، ولكنه قابلنى مبتسمًا ليقول: إنه سيسعد حين أدون له خواطرى النقدية فى بحث خاص ليرجع إليه إذا حانت الطبعة الجديدة للكتاب، وهذا السلوك المطمئن الواثق هو ما يميز الدكتور السعدى دائمًا، وما جعل أصدقاءه وزملاءه يعتزون به، وقد جنى كثيراً من الشوك بسبب هذه السماحة، ولكنه لم يثر ثورة الغاضب، إذ طُبع على الهدوء اليقظ، وقد دعى منذ أعوام لإلقاء محاضرة أدبية نقدية عن الشاعر الكبير عبد الرحمٰن شكرى بالنادى الأدبى فى جدة، وهو أولى الزملاء بالبحث فى موضوع من صميم تخصصه، إذ كتب رسالة الدكتوراه عن الشاعر فعرف عنه أكثر مما يعرف سواه، ولكن ـ وهذا موضع العجب العجيب ـ رأيته بعد كتابة بحثه المسهب، يَدعونى إلى زيارته، ثم يعرض علىَّ المحاضرة قبل أن يلقيها، فقد يكون بها ما يصلح أن يكون

موضعاً للنقاش، وقد دهشت جدًا لهذا الطلب غير المنتظر، وأخذت المحاضرة وأفدت منها، ولم أر بها غير الجيد الصحيح، وعاتبته على ماصنع، فقال فى ابتسام: وماذا يمنع من أن أطمئن؟ فقلت له: إن اطمئنانك هذا مع وثوق الناس بك قد حيرنى.

وقد كان الدكتور محمد السعدى عميدا لكلية اللغة العربية بالمنصورة حين أُنشئت، فلاقى تأسيسها العلمى والإدارى والبنائى جهداً كبيرًا قام بتذليله، على نحو مرهق شاق، ثم ترقَّى إلى منصب أعلى، وجئت عميداً للكلية من بعده، فرأيت أن أقيم له حفلة تكريم اعترافًا بجهده فى إنشاء الكلية وسيرها هذا المسير الصحيح، وقام المتحدثون فأثنوا عليه بما هو أهله، وكانت المفاجأة فى الكلمة الختامية التى ألقاها الدكتور السعدى، حيث ذكر أسماء الزملاء والإداريين والموظفين الذين عاونوه جميعًا جميعًا، وأحصى لكل فرد جُهده الذى قام به، وكأنه كان أثناء عمله عميدًا يُسجل خطوات من يقعون تحت إدارته تسجيلا واعيًا، وقال فى تواضع: إن الشكر لهؤلاء جميعا، وقد خرج المستمعون دَهِشين لهذه الذاكرة التى وعت كل شىء، ولهذا الاعتراف المثالى بكل جهد مبذول؛ وكم رأينا من رؤساء لم يعملوا شيئاً ارتكانًا على جهود مرءوسيهم، ثم هم بعد ذلك يتلَمَّسُون الهفوات التافهة لعقابهم، وكأن الرياسة لاتتم إلا بالاستعلاء وترصد وسائل العقاب.

وفى اجتماعات اللجان الدائمة لترقية الأساتذة بجامعة الأزهر، رأيت من حزم الدكتور فرهود ما أعجبنى، لأن هذا الحزم الدقيق لم يمنع نظرة الرحمة المتسامحة لمن قعدت بهم بعد ظروفهم الصحية فى مختتم العمر، عن الإجادة التامة، فكان الدكتور يقف فى صف هؤلاء الذين سيودعون عملهم عن قريب، قائلا: إنهم كافحوا قدر مايستطيعون، ولهم جهدهم العلمى الذى يؤيده نشاطهم الممتد عبر السنوات الماضية، وهو رأى قد يجد المعارض، ولكنى أسجله كما رأيته. مع ملاحظة أن النتاج يكون دائماً فى مستوى مقبول، ولايهبط إلى درجة المؤاخذة، فهنا يكون الحسم الدقيق.

هذه خواطر أكتبها عن صديقى الكريم، راجيًا أن أجد مجالا آخر للحديث عنه كما أريد بإسهاب.

الشيخ محمد أبو زهرة

للإمام الفقيه الثبت الأستاذ الشيخ محمد أبى زهرة، قوة لا تُغلب، فهو مع فقههِ الصائب، وعلمه الغزير ذُو حجاج وجدل، يقتحُم المعارك القلميّة فى الصحف، والمصاولات اللسانية فى الندوات، فيُسيطر على الموقف بدامغ الحجة، وواضح البرهان، لأنّ الرجل ممتلئٌ بأصول الشريعة، بصيرٌ بتيارات العصر ودوافعه.. عالمٌ بما يحوكه المغرضونَ من مكايد، ثم هو صريحٌ لايُمارى ولايدارى، لذلك كان موضَع الهَيْبة والخشية يحذرُه معارضوه، ويؤيّده ذوُو وجهته فى حب خالص.

عُرِف عنه معارضته لما يسّمى بالاشتراكية، حين زعَم فريقٌ أنّها من أصولِ الإسلام، فنادَى بأن الإسلام شرعة سماوية فوق المذاهب الوضْعيّة التى تَتَبدل وتتحول، وتظهر عوارُها الصارخ عند التطبيق، وساء ذلك صاحب الجبروت فى مصر، فدعاهُ، لاليناقشه بالمنطق الواضح، ولكن ليصيح به، أنتَ يا أبا زهرة تؤلّف الكتب، وتبيعها بالثّمن الباهظ، وتعيش عيش المترفين، ثم تصيح فى الناس منددًا بالاشتراكية غافلاً عن حقوق الكادحين والفقراء، وتقولُ إنك عالم من علماء الإسلام! وكان المتحدث ينتظر من الرجل أن يعتْذر متراجعًا، ولكنه قال له: أنا أؤلف الكتبَ داعيًا إلى الله، يقرؤها المسلمون فى جنبات الأرض، خارج مصر وداخلها، ويسارعونَ إلى المناداة بإعادة طبعها حين تنفدُ على وجه سريع فأستجيب، ثم أدفعُ الضرائب للدولة، وأُعطى الزكاة للمستحق، وذلك كلّه مباح فى شريعة الإسلام، بل إنه فرضٌ على من يقدرُ عليه من العلماء، ولكنكم تصدرون الكتب مؤيدةً سياساتكم، وتتحمل الدولة نفقاتها الكثيرة، وتمتلىء بها

مخازنُ المكاتب الحكومية، وتوزّع على الطلاب وغير الطلاب، فلا يقرؤُها أحد، فمن هو الصّحيح: مَن يكتبُ لنفع المسلمين فيسعون لقراءة ماكتب، أم من يؤلف وتطبع الدولة مؤلفاته، ثم تُركن على الرفوف، هذا هو الواقع المشاهد، فأين الجواب؟

وكان المتحدث الخطير فى شغلٍ شاغلٍ من نكسةٍ نزلت به، فآثر المهادنة، وخرجَ الرجل الكبير مرفوع الرأس كعادته، دونَ أن يشغل باله بما كان.

أول لقاء:

كان من عادة الأستاذ أبى زهرة أن يستقلّ مترو مصر الجديدة فى رواحه وغدوه، وكنتُ أراه دائما يَجلس مع نفرٍ من حوارييه فى وقارٍ وأناة، فإذا تحدث وجدَ الإنصات التام، ولو جرَى الحديث فى العُموميات المتداولة، وفى يوم مَّا وجدتُ الرجلَ وحده، والمكان خاليا بجواره، فسارعتُ إلى الجلوس معه، وبدأت الحديث قائلا:

أنا أشتاقُ هذا المجلس من زمن بعيد، لأننى أحد قرّائك المتابعين، فقالَ فى ابتسام: أهلا وسهلا، وماذا لديك حول ما تقرأ؟

قلت، لقد وقعَ فى يدى كتاب (مالِك، تجارب حياة) للأستاذ أمين الخولى، وقد سَبق أن أشرتَ إلى المؤلف فى بعض كتاباتك مقرظًا، ولكنّه فى هذا الكتاب يخالفك منددًا بالدراسات العليا فى كلية الحقوق، ولا أدرى وجهة نظره، لأنّه قال ما يحتاجُ إلى إفاضة بدونَ أن يُفيض.

فقال الشيخ: لقد قرأتُ ماكتبَ، إذ عَرضَه بعض الطلاب علىَّ، وذلَك أنّى فى كتاب (أحمد بن حنبل) نقلتُ قول بعض العلماء: «لو قالَ رجلٌ إن أحمد بن حنبل من أهل الجنة ما عُنّف فى ذلك، ذلَك أنه لوقصد رجل خراسان ونواحيها، لقالُوا إنّ ابن حنبل رجل صالح، وكذلَك لو قصد العراق ونواحيها لقالوا: ابن حنبل رجلٌ صالح، وكذلك لو قصد الشام ونواحيها لقالُوا: إنّ ابن حنبل رجل صالح، فهذا إجماعٌ وهو قولُ فقيه محدّث معاصرٍ لأحمد فيه، يرَى إجماعَ الأقطار

الإسلامية المتنائية على أنّ الإمام رجل صالح، وبه تقوم الحجة على صلاح هذا الرجل».

قلتُ هذا فى مَظَنَّةِ الإجماع وأريد به الرأىَ العامَّ الإسلامى فى عالمٍ من علماء الإسلام، كما تحدّث عنه زميلٌ معاصر، ولكنَّ الأستاذ أمين لم يفطنْ إلى ما أريد، وأخذ يتحدّث عن الإجماع الأصولى، كأنّنى أعنيه، مع أنّ السياق واضح، وألسنة الخلق أعلام الحق، ولن يجتمع المسلمون فى الشرق والغرب على إكبار إمامٍ فقيهٍ محدّث شجاع، وهو غير جدير بهذه الثقة، فماذا فى ذلك؟ وما المذلة التى تلحقَ الدراسات العليا فى الجامعة لو قلْنا: إن إجماعاً من الرأى العام تقررَ بشأن ابن حنبل ومكانته العالية؟ ولكنّ الأستاذ أمين يتكلم بما يشاء.

ولا أدرى لماذا قلتُ له إنّ لى مؤلفًا عن الإمام أحمد بن حنبل أودّ أن تتفضّل بقراءةِ شىء منه، قال فى هدوء: مَرْحَبًا، ثم فارقتُه فى شوقٍ حين بلغ (المترو) غايتَه، وبادرتُ بإرسال الكتاب إليه سريعًا بالبريد.

في احتفال الشبان المسلمين:

لمُ يتح لى أن أُديم اتصالى بالشيخ الكبير، ولكنّى بعد عامين من هذا اللقاء العاجل سارعتُ إلى حضور حفلٍ بجمعية الشبان المسلمين تأبينًا لبعض الراحلين من العلماء، فرأيتُ الأستاذ هناك، وانتهزتُ الفرصة للجلوس معه، فذكّرتُه بلقاء (المترو) وسألتُه عن كتابى الذى أرسلتُه بالبريد إليه، فقالَ: إنه قرأ بعضًا منه، وفاتَه أن يكتب إلىّ فى حينه، ثم قال:

لقد كثرتِ الكتابة عن الأعلام الأربعة من فقهاءِ الإسلام فى هذا العصر، وهذا شىء جميل لاشكّ فى نفعه، ولكن هُناكَ من الأعلام المماثلين من لم يَحظوا، ولو بمقال واحدٍ فى المجلاّت العلميّة، ولَدَيْك كتاب (طبقات الفقهاء)، للسبكى، فإنّه بأجزائه العشرة الحافلة بسير الفقهاء مرجعٌ تاريخى وفِقهىّ لعلماء أفاضل، منهمْ من يرتفع إلى منزلة الأئمة الأربعة، ويجبُ أن نبحث عن هؤلاء لنقدّمهم إلى القراء، وقد كتبتُ أنَا عن الفقهاء الكبار، لأنّى أرصد الاتجاه الفقهى فى مدارسه

الأولى لدىَ أئمة المذاهب الفقهية، فكان البحث الفقهى هَدَفى الأوّل، وعليكُمْ أن تبحثوا عن غيرهم فى كتب الطبقات المختلفة، ليستفيد الجمهور مما تكتبون حين يطالع الجديد.

ثم استطردَ الشيخ يقول: لقد ذكرتُ أنّ كتاب طبقات الفقهاء للسبكى مرجع تاريخى فقهى، وأؤكد ذلك ثانيةً؛ لأنّ المؤلف الكبير كان لايقتصرُ على تدوين حياة الفقيه، بل يلّم بآرائه الفقهية التى اجتهد فيها، وقد يكونُ من هذه الآراء ما هو جديّد فى بابه، ودراستُه حينئذ أوجب وألزم..

موقف رائع:

ودارت الأيام، وانقطَع لقائى بالشيخ، حتى لقيتُ ذات يوم عالما كبيرًا من أفاضل العلماء فى سوريا الشقيقة، فقال لى - وقد اطّرد الحديث فى شجون مختلفة: حيًّا الله الإمام أبا زهرة، لقد دُعينا إلى ندوة إسلامية كبرى بإحدى العواصم العربيّة التّى اشتهرت بالثورية، وكان المنتدون من كبار العلماء فى العالم الإسلامّى، وفوُجئنا يوم افتتاح الندوة بحضور رئيس الدولة ليقولَ إنّه دعا إلى هذه الندوة ليقرر العلماءُ أن الاشتراكية هى المذهب الإسلامى، وليصدرُوا قرارَهم فى هذا الاتجاه، قال الرئيس ذلك، فتكدرّت النفوس، وعبستِ الوجوه، ولكنَّ الشيخ أبا زهرة حيّاه الله، طلبَ الكلمة، واتجه إلى المنبر ليقول:

نحنُ علماء الإسلام وفقهاؤه، وقد جِئْنا إلى هذه الندوة، لنقولَ كلمة الإسلام كمانَراها نحن، لاكما يراها السّياسيون، ومن واجب رجال السياسة أن يَسْتمعوا للعلماء، وأن يَعرفوا أنّهم متخصصون فاهمون، لاتخدعهم البوارق المُغرية، وقد دَرسوا ما يسمى بالاشتراكية، فرأوا الإسلام أعلى قدرًا، وأسمَى اتّجاهًا من أن ينحصر فى نطاقها، وسيصدُر المجتمعون رأيهم كما يعتقدون، لاكما يُريد رجال السياسة، فهم أولُو الأمر فى هذا المجال، ثم توجه الشيخ إلى زملائه قائلا: هلْ فيكم من يخالف؟ فرأى الإجماع منعقدًا على تأييده، فقال: الحمد لله، ولم تستمر الندوة فى انعقادها أسبوعًا كما كان المقرر لها من قبل، بل كان حفل الاستقبال هو حفل الختام.

فى مجمع البحوث الإسلامية:

كنتُ متجهًا إلى زيارة أستاذى الدكتور عبد الحليم محمود، وكان حينئذ أمينًا عاما لمجمع البحوث الإسلامية، فصادفتُ الأستاذ الكبير أبا زهرة يجلس معه، وقد تفضّلَ فرحّب بى مشجعا، وكنتُ فى هذه الآونة مشغولا بكتابة بحث عن الخطابة فى العصر النبوى، فقلتُ للشيخ: أنا أعرفُ أن لك كتابًا قيّما فى تاريخ الخطابة وأساليبها المختلفة، وعجبتُ كيف انتقلتَ من الفقه إلى الأدب.

فرأيت أبازهرة يتنهد، فأشفقتُ أن أكونَ آلمته حيث لا أود، ثم استمعت إليه يقول: يا بنى إن الثقافةَ الإسلامية جزءٌ لايتجزأ، وكمٌّ لاينفصل، فلابد لدارس الفقه والحديث والتفسير أن يدرسَ علوم الأدب، لأنّه لايستطيع التعبير عن نفسه إلاّ إذا رُزق البيان الناصع، والأئمة الكبار من الفقهاء كانوا يملكونَ نعمة البيان، فاستطاعوا أن يضعوا المؤلفات القيّمة، وما انحطّت كتب الفقه فى العصور المتأخرة إلا لأنّها كُتبت بأقلامٍ لم تتذوق البيان العربى، فجاء أكثرها شبيهًا بالأحاجى والألغاز، لقد كانت كلّية الحقوق تَدرس مادة الخطابة لعدة سنوات، فأخرجت من كبار القضاة والمحامين والمشرّعين مَن استطاعوا أن يكونُوا زعماء تشريع وسياسة وأدب، وعلى كلية الشريعة وكلية أصول الدين بالأزهر ألاّ تُغْفلا تدريس البيان العربى، ثم اتجه إلى الدكتور عبد الحليم فقال له: ماذا ترى ياسيدنا؟ فقال الدكتور عبد الحليم: لقد كنتُ عميدًا لكلية أصول الدين وأستاذًا بها من قبل، ولحظتُ أن الطلاب فى حاجةٍ إلى قوة الأسلوب، ولابّد من الإلمام بأصول البلاغة، لأنّ رسالتهم تقوم على الأداء، ولا أداءَ بدون بيان، قال الشيخ: فادعُ إذنْ إلى ذلك يا أخى! ثم استأذن منصرفًا...

فى الندوات العلمية:

الآثار التى كتبها الأستاذ أبو زهرة أكثر من أن تحصر، فقد ترك من المؤلفات الضخمة فى التشريع والتاريخ الإسلامى والعقيدة والمذاهب الإسلامية والقرآن الكريم، وحياة خاتم النبيّين، وسير الفقهاء مايملأ مكتبة فسيحة، وكان له مع ذلك

openkhadia.com

كلّه آثار صوتية فى الندوات العلمية، لو جُمع مضمونها فى مؤلّفات لبلغت عددًا كبيرًا، إذ كان يحرص على أن يقول كلمة الإسلام جهيرة مدوّية، فيتحول الموقف إلى النقيض.

عندما ظهر فيلم «ظهور الإسلام» المأخوذ من كتاب الدكتور طه حسين المسمّى «بالوعد الحق» تبرّع كثير من الكتّاب بالدعوة إلى تمثيل العصر النبوى على الشاشة، باعتبارها عاملَ تأثير فى النفوس، وقامت ندوة أدبيّة تحبّذ هذا الاتجاه، ولكنّ الأستاذ أبا زهرة سَعَى إلى الندوة مستمعًا، لأنّ أحدًا لم يجرؤ على دعوته متكلمًا كيلا يُفاجأ القوم بما لا يودّون، ثم طلب الكلمة، فرحب الجمهور، واضطرّ مُنَظم الندوة أن يدعو الشيخ للكلام، فوقف مُتفرسًا وجوهَ الحاضرين، ثم قالَ إن الذين يتحدّثون عن أثر السينما فى الدعاية للإسلام بدليل انكبابِ الجمهور على مشاهدة فيلم «ظهور الإسلام» لم يوفّقُوا فيما يدعون، لأننا نعلم أنّ هذا الفيلم لم يزدِ المؤمن إيمانًا فوق إيمانه، ولم يردع فاسقًا عن غيّه، ولم يدخل أحدًا من ذوى الأديان الأخرى إلى حظيرة الإسلام، فهل نفدتْ كلُّ وجوده الدعايات للإسلام ولم يَبق إلا تمثيل أحداثِ العصر النبوى بأَعْلامٍ من صحابة رسول الله؟! وهل يُعقل أن يقوم ممثل اليوم بتمثيل دُور بلال حين عُذّب فى ذات الله، ثم يجده المشاهد فى رواية أخرى يمثل دورَ ماجِنٍ خليعٍ! وهلْ يُعقل أن تضع ممثلة لبعض الصحابيات دلائل المكياج فى وجهها كما أخبرنى بعض من شاهدوا الفيلم ثم نزعم أنّها تمثّل صحابية شهيدة ذهبتْ روحها فداءً لدينها الحبيب! وماذا نصنع إذا وجدنا هذه الشهيدة فى فيلم آخر تأتِى بما ينكره الإسلام فى بعض المشاهد الداعرة أليست هذه إساءةً واضحة للصحابيات! وجال الأستاذ فى هذا المجال بَسطوة خارقة نعْهدها فى براهينه، فخرج المجتمعون وأكثرهم فى اتجاهه.

وفى ندوة أخرى دار الحديث فيها عن حرية المرأة، فوجئ المجتمعون بحضور أبى زهرة، وقد طلب الكلمة ليقول كلمته معقبًا على منَ يمنع التعدّد فى الزوجات ويرى تقييد الطلاق، وما بدأ الحديث حتّى مال بالرأى المتفق عليه إلى وجهةٍ مخالفة، وصاحَ بالقوم، أنتم تريدون حرية للمرأة المسلمة مثل حرّية المرأة

الأوربية، ونحن نَرىَ قوانينَ التشريع فى ألمانيا وإيطاليا تتجه وجهةً إسلامية، فتجيز الطلاق لدوافعه المعقولة، وتُبيحُ التعدّد لضرورته الملزمة! فهل فقدت المرأة الإيطالية أو الزوجة الألْمانية حريتها حيَن اتجه قانون البلاد إلى مايتجه إليه الإسلام؟ إن المرأة فىَ منزلها ذات حرية، ولكنّ الذين يطالبون باحتذاء الغرب، لايرون الحرية إلا فى تمزّق الأسرة وتأكيد أسباب الفرقة والانفصام!

هاتان ندوتان، حضرتهما، واستمعت إلى كل ما قيل بهما، ورأيت انطباعات الجمهور المؤمن بعد حديث أبى زهرة تنطق بتأييد الشيخ، وتهجين من يرى غير وجهته، وكم لهاتين الندوتين من مثيلات مُجلجلةٍ بصوت أبى زهرة، إذ كانَ مطمح الأنظار، وموضع الانجذاب.

* * *

obeikandl.com

الدكتور محمد حسين الذهبى

حزنت جداً لمصرعه الظالم، فقد كانَ نبيلَ الخُلق، غزيرَ المادة، طاهرَ الطويّة، يؤدّى واجبه العلمى بينَ طُلابه أحسَن أداء، فهو يفسحُ صدره لكل نقاش، ويتقبل النقد مهما قَسَا، ويعبّر عن وجهة نظره فى هدوء غير متكلّف، وكانَ مع وفرة علمه فى ميدان تخصّصه الذى برع فيه، كثيرَ الاستماع لمن يحدّثه فى ميدان نبوغه، وإن كان من تلاميذه الصغار، يستمعُ وكأنّه يفيد مما يسمع، فإذا رأى أن يُصحّح الخطأ، قَدَّمَه فى ابتسام، وكأنه يتساءل. عرفَ زملاؤه وتلاميذه هذا الصَّدْرَ الفسيح فى تكوينه، فأجمعُوا على حُبِّه، وقلّما يُجمع المتنافسون على حبّ مَن يزاملُهم فى اتّجاههم العلمى، هذا إلى تواضعٍ يكادُ يصلُ إلى درجة الانكسار فى معاملة قاصديه، وقد كان وزيراً يقف أمام الباب فى وزارة الخيرات ليقرأ بنفسه عريضةً يقدّمها سائلٌ محتاج، وأراد بعض المنافقين من مرءوسيه أن يُبلّغه فى تملُّق أنه أرفعُ من أن يقف مع طالب حاجة هذا الأمد الطويل، فقال لهُ فى هدوء يقرب من الاحتجاج: دَعْنى، فكلّنا طُلاَّب حاجات، فإذا قلتُ إنى حزنتُ كثيراً كثيراً لمصرعه الظالم، فأنَا صادقٌ صادقٌ.

اللقاء الأول:

وقد قابلتُ الدكتور الذهبى ثلاث مرات فحسب! وهى لقاءات علميّة لم تخرجْ عن حدّ السؤال والجواب والرد والاعتراض فى بساطة يعرفها أصدقاء الرجل، فقد كنتُ أؤلّف كتابًا عن (خطوات التفسير البيانى) أعرض فيه جهودَ البيانيّين من المفسرين الذين تناولوا كتاب الله من الناحية البلاغيّة، وفى مطالعاتى المتكررة

عرفتُ من بعض الكاتبين أنّ للزمخشرى نظيرًا فى منحاه البيانى، هو ابن عطية الأندلسى، صاحب التفسير المسمّى (بالمحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز) فرأيت من مستلزمات البحث أن أقرأ هذا التفسير، وأدرسَ اتجاهه البيانى، وكان لايزالُ مخطوطًا، وبه أجزاءٌ متفرقة فى دار الكتب المصرية، فحاولتُ الاطلاع عليها أكثر من مرة، فلم أجدْ مُعينًا بالدار، إذ تعلّلوا بتمحلات لامُبَرِّرَ لها، فتذكرتُ أن الأستاذ الدكتور محمد حسين الذهبى كَتَبَ عن هذا التفسير فى مؤلّفه الكبير (التفسير والمفسرون)، وقد خصَّه بباب منفرد، فعلمتُ موعدَ حضوره بالكلية، وذهبتُ إلى لقائه، وقلت: إنى فى حاجةٍ إلى معرفة اتّجاه ابن عطية فى تفسيره القرآنى، وقد اتصلتُ بدار الكتب بدون جدوى، وقرأتُ ما جاءَ فى كتابك القيم، فهرعتُ إلى الاستزادة منك، فسألَنى عمَّا أقومُ به من تأليفٍ فى هذا المجال، فقلت: إنى أضع كتابًا أرصُد فيه خطوات التفسير البيانى على مرّ العصور، وقد قرأْت أنّ ابن عطية يسهم فى هذا المجال بنصيب وافر، وأنّه يُقْرَنُ بالزمخشرى فى اتجاهه البيانى! فصمتَ الرجل قليلا، وقال: الذّى أعرفه من قراءتى لبعض أجزاء التفسير المخطوطة بدار الكتب، أنّ الناحية البلاغية فيه ضعيفة جدا، وأنهُ لايقرن بالزمخشرى فى هذا المجال. قد يكون المفسّر موضّحًا لآيات التشبيه والاستعارة والمجاز فى النص القرآنى، ولابد أن يفعل، ولكنه لايزيد فى ذلك عمَّا يذكره النيسابورى، أو الألوسى، أو الفخر الرازى، والذين يقرنونه بالزمخشرى فى هذا المجال قد ظلموه، فإذا كنت قد خصصت كتابك للتفسير البيانى وحده فلن تجد عنده شيئًا ذا بال متميز!

ورأيتُ المجال يسمح بالحديث عن كتاب الدكتور عن التفسير والمفسرين بأجزائه الثلاثة الكبار، فقلتُ: إن أستاذنا قد وضَع أول كتاب يؤرّخ التفسير القرآنى على نحو جديد معاصر، إذ لم يسبقْه فى هذا المجال قدر اطلاعى المحدود من أبناء العربيّة كاتبٌ معاصر! فنطر الأستاذ متفرّسًا فى وجهى، ثم قال: أصدقُك الرأى يا أخى أنى غير راضٍ عمَّا كتبت، فقد كنتُ أُوثر أن أكتبَ عن عصر واحد من عصور التفسير، لأُشبعَ القول بما يُرضى حاجة نفسى، ولكن الرسالة العلمية التى

وافَق مجلس الكلية على عنوانها قد شملت تفسير القرآن جميعه، فجعلتُ أسْبحُ فى محيط لا أعرف أوّله من منتهاه، وكان الجهد شاقا فى قراءةِ المخطوطات المتآكلة، واستيفاء المصادر البعيدة، ممّا أوقعنى طيلة إعداد الرسالة فى تأزّم مستمر، وأعتقد أنى قمت بالمستطاع فحسب لابما يجب أن أقوم به.

وتابع الدكتور الذهبى حديثه قائلا: لقد علمت أن المستشرق المجرىّ الأستاذ (جولد زهير) أصدر بالألمانية كتابًا عن تاريخ التفسير، فسعْيتُ حتى عرفت أن نسخة منه بجامعة فؤاد، وهُنَا أخذتُ ألح على أساتذتى بالكلية ممن يعرفون الألمانية أن يتكرّموا بترجمة الفهرس فقط، لأرى اتجاه المستشرق فى التأليف، فقد يفيدنى، فاعتذروا عن هذا العمل الهيِّن، ولو وَقَعَ فى يدى هذا الفهرس لنفعنى، إمّا متابعة أو مَعارضةً، ثم ترُجم الكتاب بعد أن أعددتُ الرسالة، وأقبلت على قراءته، فلم أسترحْ لكثير ممّا جاء به، ولو تُرجم الكتاب جميعه وأنا أضع الرسالة لتتبّعتُه بالنقد المنصف.

قُلت: ولكنى أتذكر أنك عددتَ الجزء الأوّل من كتاب (جولد زهير) من مراجعك، قال: أنت على صواب، فقد ظهر هذا الجزء بعد مناقشة الرسالة، وقبل طبع الكتاب، فجعلتُه مرجعًا لمن يريد الاستفادة، وحاولتُ أن أضيف إلى الرسالة فقرات تتعلق به فى موضعين أو ثلاثه من الرسالة بعد مناقشتها ثم رأيت أن العمل يتطلب كتابًا مستقلا، وأذكر أن مترجم الكتاب لأول مرة، وهو الدكتور على حسن عبد القادر، ومترجمه للمرة الثانية وهو الدكتور عبد الحليم النجار، وكلاهما من نابغى الأزهر، قد علقا على الآراء الشاذة بإيجاز، والأمر يتطلّب الاستيفاء.. وهكذا دار الحديث.

اللقاء الثانى:

بعد ظهور كتابى (خطوات التفسير البيانى) قابلنى أخى الأستاذ الدكتور الحسينى هاشم رحمه الله، وقال لى: إن أستاذنا الدكتور محمد حسين الذهبى يبحث عنك، وقد طلب منى أن أخبرك بضرورة لقائه، فلا تتأخر.

وكنتُ مشوقاً للقاء الرجل، ولكنى أخذتُ أسائل نفسى عن رغبة الأستاذ وباعثها، فقلتُ: ربمّا يكون قد تفضل بقراءة الكتاب، وفيه نقدٌ صادق لبعض آرائه، فأراد أن يناقشنى فيما كتبت، وسعيتُ إلى استيعاب ما نقدتُ به الأستاذ، وفحواه أن المؤلف أفرد فصلاً خاصا عَمًّا سمّاه (التفسير الإلحادى) يدور حول آراء فى التفسير لأستاذَيْن كبيرَيْن من علماء الأزهر، هما الشيخ حامد محيسن شيخ كلية اللّغة العربية الأسبق، وعضو هيئة كبار العلماء، والشيخ عبد المتعال الصعيدى، من كبار علماء الأزهر، وأساتذة كلية اللّغة العربية، وقد بدأ حديثه بقوله: «يمنى الإسلام من زمن بعيدٍ بأناس يكيدون له، ويعملون على هدمه، بكل ما يستطيعون من وسائل الكيد، وطرق الهدم.. مُنى الإسلام بهذا فى أيامه الأولى، ومُنِىَ بمثيله فى أحدث عصوره، فظهرَ فى هذا العصر أشخاصٌ يتأولون القرآن على غير تأويله، ويلوونه إلى ما يوافق شهواتهم، ويقضى حاجات نفوسهم، فأدخلوا فى تفسير القرآن آراء سخيفه، ومزاعم منبوذة».

وقد استهولْتُ أن يُقال هذا الكلام فى عالمين كبيرْين لهما وزنهما العلمى فى الدوائر الأزهرية، وإنْ كَتَبَا ما يخالف التفسير المتعارف، فالأستاذ حامد محيسن قد اشتط فى تأويل آيات الرجم بالكواكب، وفى تأويل قصة أيوب اشتطاطاً ظاهر التعسف، والرد عليه لايكون بجعله بين مَنْ يكيدون للإسلام ويعملون على هدمه، والأستاذ الصعيدى قد اشتط حين وقف أمام آيات الأحكام فى الزنى والسرقة، فقال الأمر فى الفعل ليس للوجوب الدائم، بل يرجعُ إلى الحاكم، تارةً يراه واجبًا، وتارة يراهُ مندوبًا ينتقل منه إلى عقاب آخر، هذان العالمان مجتهدان وقد أضلاَّ طريقَ الصواب فيما انتحياه فكان الأوْفق بالدكتور الذهبى ألاَّ يجعلهما مُلْحِدَيْن، وهذا ما عارضتُ به الأستاذ الذهبى حين قلت (فى ص ٣٢٨ من كتاب خطوات التفسير البيانى):

«وليتَ شعرى إذا جاز لبعض المسْتشرقين ومن يتعاطون التفسيَر من غير أبْناء الإسلام، أن يُوصَمُوا بالكيد للإسلام، والعمل على هدمه، شفاءً لإحنهم المريضة أيجوُز أن يكونَ شيخ كلية اللغة العربية، ومدير التفتيش بالأزهر، وعضو جماعة

كبار العلماء أحد هؤلاء! والرجلُ لم يزد على أن اجتهد، أخطأ أم أصاب، لوصحّ ما قاله الأستاذ الذهبى ما وجَدَ الأستاذ مكانًا جهيرًا له فى أعرق جامعات الإسلام، بل ما وجد كُبرى المجلات الإسلامية تُوسع له من صفحاتها أفسح مكان، إنّ فضيلة الأستاذ الذهبى رجل غيور بدون شك، ولكنّه اشتطّ فاندفع، فضاع من يده الزمام».

هذا ما قلته عن الدكتور الذهبى فى كتاب طَبَعَه مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، وتداوله الطُلاَّب والأسَاتذة، وجاء خبره للأستاذ الذهبى، فقرأ ما سطّرته، ولابدّ أنه يريد أن يناقشنى فيما كتبتُ، ففكّرتُ فيما يجب أن أقوله إذا دار النقاش حول هذه القضية، وسارعتُ إلى لقاء الشيخ الكبير، فرأيته ينهضُ واقفا حين وقع نظره على، ويبتسمُ مادا يده الكريمة ويقول فى مودة: اجلسْ يارجب، لقد علّمتَنى، لقد علَّمْتنى! قلت: معاذ الله ياسيدى فنحنُ جميعًا تلاميذك، قال: قرأت كتابك من ألفه إلى يائه، لأنه تحدث عن ناحية فى التفسير لم تكنْ موضع اهتمامى الأوّل، وحين وَصلت إلى ما قلتَه عن التفسير الإلحادى عرفتُ أنى أخطأت، لقد كنتُ مندفعًا فى عهد الشباب يا أخى، ولكنْ ألا تعلم أنّ معنى الإلحاد هو الميل، وإذن فقد وصفتُ الرجلين بأنهّما مالا ولم يعتدلا: قلتُ فى عجلة، معنى الإلحاد لغويا هو الميل، ومعناه اصطلاحًا المروق والكفر! قال: أعلم هذا، ولكنّى أردتُ أن أخفف عن نفسى، فأعترف أن الحق معك! وربتَ كتفى فى مودة، فكان مجلسه مضرب المثل فى صدق الاعتراف، وفى الإقرار بالحق بدون ملاحاة!

اللقاء الثالث:

ذهبت إلى مكتب أستاذى الجليل الدكتور كامل الخولى عميد كلية اللغة العربية ذات صباح، فوجدته يجلس مع الدكتور الذهبى مُتحاوريْن، فظننتُ الحديث خاصا، وهممتُ بالرجوع، ولكنّ الرجلين معًا قد صاحا بدعوتى فى صوت واحد، فأقبلتُ لأجد الدكتور الذهبى يقول: أنت تفر منّى، لأنكَ تعرف أنّى

سأعاتبك، قلتُ: إن عتاب الدكتور نصح وإرشاد وتوجيه! فقال الدكتور الذهبى موجهًا الحديث للدكتور الخولى: إن الدكتور رجب متأثر بما قال الدكتور أحمد أمين فى كعب الأحبار، فقد قرأتُ له مقالاً ينزل به عن قَدْرِه، وكَعْب فى رأيى مسلم صادق، والذين يتشككون فى إسلامه لايملكون الدليل، وقد بسطتُ هذا الموضوع فى كتابى عن التفسير، وقرأه رجب، ولكنه لم يقتنع به كما أرى فى اتجاهه!

قلت: ياسيدى، إن صاحبَ المنار السيد محمد رشيد رضا لا الدكتور أحمد أمين وحده قدَ هاجم كعباً ووضعه دُون موضعه لديك بكثير. قال: أعرف هذا، ولكنَّ كعبًا قد رَوَى عنه ابن عباس، وأبو هريرة، ورَوى عنه الإمام مسلم، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، ولولا ثقة هؤلاء الكبار من الصحابة، والأجلاء من رجال الحديث ورواته ما روَوا عنه شيئًا! والقصةُ التى تقولُ إنّ كعبًا اشترك فى مؤامرةِ عمر بن الخطاب التى انتهت بمصرع الفاروق لا تَثبتُ أمام النقد، إذْ كيف يُعقل أن يقول كعبٌ لعمر ستموت بعد ثلاثة أيام، ثم يُصرع بيد الغدر فى الوقت الذى حدّده ولا يتجه الاتهام حينئذ إليه؟ لَوْصّح ذلك لَقُدّمَ كعبٌ إلى المحاكمة مع أبى لؤلؤة المجوسى والمرزبان ومَن اشتركوا فى التدبير، ولكن أحداً لم يُوجّه إليه ملامًا، أما السيد رشيد فعلى جلالة علمه فهو رجلٌ يؤخذ منه ويرد، وقد كتب الأستاذ الدجوى رحمه الله تفنيداً لما قال السيد محمد رشيد رضا وإنْ لم يصرّح باسمه.. راجعْ هذه القضية من جديد يارجب. فأصغيتُ بدون اعتراض، وأذكر أن الدكتور الخولى قال للشيخ الذهبى مداعباً تناقشه فى تاريخ التفسير وهو مجالُ تخصصك فيسكت، ولكنْ لو ناقشته فى الأدب والنقد والبلاغة لما سكت!

قال الذهبى: أعرف أنه سكت تأدبًا فقط، وعنده ما يقوله...

ثم تولّى الدكتور وزارةَ الأوقاف، ولاقى صعوبات شاقة فى الوقوف أمام التيّارات الوصوليّة، وقد اعترف علنًا فى مجلس الشعب أنه غير مبتهج بمنصبه،

وأنّه يتمسك بموقفه مؤثرًا أن يرجع إلى مكانه العلمى بجامعة الأزهر، وقد تحقّق له ما يرتجيه، ولكن أعوان الشر تربّصوا به، فنال الشهادة مأجورًا مُثابًا، فصار ممن يستبشرون بنعمة من الله وفضله، فرحين بما آتاهم الله من فضله العميم.

* * *

obeikandl.com

الدكتور زكي مبارك

حين انتقل الدكتور زكى مبارك إلى رحمة الله نشرت بمجلة الرسالة ترجمة أمينة لحياته، ولم أغفل فى ختامها ما اصطدم به فى خريف عمره من تهاون واستخفاف، بعد أن أسهبت إسهابًا شاملاً فى تقدير مؤلفاته، وتشخيص سماته الأدبيّة، ولم يكن فى ذلك ملامة تلحق مؤرخًا منصفًا يحاول أن يقدم للتاريخ صفحة صادقة عن راحل كريم، وقد شاء صاحب الرسالة أن يلحق اسمى فى رأس المقال بهذه العبارة (بقلم صديقه وتلميذه) وقد سألته عن ذلك فقال: ليطمئن القارىء إلى أن الذى يتحدث قريب غير بعيد.

وما كاد هذا البحث يُقرأ، حتى تلقيت نقدًا متعدّدًا من زملاء أفاضل يقدّرون الدكتور، ويرون إشارتى إلى حالته الأخيرة إساءةً إلى تاريخه، مع أنه تحدث عنها بنفسه، وسجّلها فى ديوان ألحان الخلود، مكررًا مُلحا بدون استتار، وقد تتابع النقد قارصًا موجعًا، حتى كدت آسف على ما قدّمت، وزاد فى حيرتى المؤلمة أن العقل الباطن صورّ لى الدكتور فى حُلم خاطف يلومنى لومًا صارخًا، فانتبهت من النوم وأنا أقاسى مرارة التأنيب، فتذكرتُ سالفةً سابقة هى أنى قبل وفاته بأشهر قليلة تحدثت على صفحات الرسالة عمًّا طرأ على أسلوب الدكتور زكى مبارك من انحراف ملموس، بحيث انقطعت الصلة بينه وبين ماكان يُدَبِّجُ من قبل، وقد ثار الدكتور على ماكتبت، واتهمنى بمجاملة خصومه، وتحدث إلى صديقى الأستاذ محمد خليفة الجعلى، وهو من قرية بريف الدقهلية، ساخطًا على ماكتبتُ، وكان الأستاذ الجعلى زميلاً له فى تحرير جريدة البلاغ.

رثاء شعرى:

وقد شملنى أسىً على رحيل الدكتور، فقلتُ فى نفسى: لقد كنت موضوعيا فى مقال الرسالة، لأنك سلكت مسلك المؤرخ، والمؤرخ ينقل عمَّا شاهد بدون تحيّز، وهذه شجونك تدفعك إلى رثاء شعرى يؤكد محاسن الكاتب الكبير، فلابد أن تشفى فؤادك بقصيدة تصوّر حسرة الأدب، ولوعة الأصدقاء على فقد هذا الأديب المطبوع، ورأيت الشعر ينحدر على لسانى سهلاً طيِّعًا، فكان مما قلت:

زكىّ رَحلت فاتجهت عيون ... تُريد البدرَ فى ليل المحاقِ
هَفت لمؤلفاتك تجتليها ... لتلمسَ العزاء عن الفراق
وأقسم ما تسلّت باطلاع ... ولكن زادها برح اشتياق
ترى الأسلوب كالمعنى رقيقًا ... فتندب صاحب الغرّ الرقاق
تركت مدامع العشاق نهمى ... على ليلى المريضة فى العراق
وإخوانًا تساقطهم حديثا ... يظل على المدى سحر الرفاق
تُكرره على شغف فيغدو ... مع التكرار معسول المذاق

وكان الدكتور مبارك فى وجداناته العاطفة، يلمس مشاعر كنت أحس بها أحياناً فى جنبات صدرى، حتّى إنى قرأتُ له خطابًا تحت عنوان (الخطاب الذى احترق) فَخُيِّلَ إلىّ أنى أنا الذى كتبته، وقد طفقتُ أتعجب لهذا الإحساس المماثل، إحساس الحرمان الخائب فى دنيا الوجدان، والأحاسيس تتشابه لامحالة، أما أنْ تتطابق بحيثُ يعبّر الدكتور عن إحساسه، وكأنه ينقل من صفحة خاطرى، فهذا ما ارتفع بنفسى فى خلواتى الصامتة التى أتحدث عنها بدون لسان، لأنّ الحزين يتسلّى بالحزين، وبخاصّة إذا كان المتسلّى به كاتبًا وشاعرًا من طراز رفيع، وإلى هذه الحالة المطابقة أشرت فيما قلت من رثاء الرجل فهتفت:

عواطفُك التى أنشأت تجلُو ... غوامضها بفكر ذى ائتلاقِ

وجدتُ مثيلها عندى كأنَّا | شربْنا الشوقَ من كأسٍ دهاقِ
تجرّعنا مرارتها اضطرارا | فلم نغنْم سوى الدمع المراقِ
وشبَّ الهجر يرمُض جانحيْنا | ويؤذن كلّ قلب باحتراق
أكانَ من المحتمّ أن ألاقى | من الوجد المبرّح ما تُلاقى
وقد عجّلتَ مرتحلا لأحسُو | بقايا الكأس وحدى دون واقِ

وهكذا خُيّل إلىّ أنى برثائى الشعرى، مسحت ما قدمت فى ترجمتى النثرية للراحل العزيز.

لقاء حافل:

بعد أن حدثَنى الأستاذ الجعلى بغضب الدكتور مبارك، سألتُه أن يحدِّدَ لى موعدًا للقائه، فقال إنه يقيم بجريدة البلاغ، ولا يحتاجُ لموعد، إذ لاعمَل له غير كتابة مقال أسبوعى يكتبه فى منزله، ويحضر للسّمر والمؤانسة، فبادرتُه لزيارته، وقد حملتُ معى ديوانه الجديد (ألحان الخلود) وكان قد ظهر منذ قليل، وفى ذهنى أفكارٌ تتعلق بالديوان، رأيت أنْ آخذ فيها رأى صاحبه، فما كاد يَرانى حتى ضحك ضحكةً عاليةً، وقال: أخبرنى الأستاذ الجعلى أنكَ لا ترضى عن مقالات (الحديث ذو شجون) التى تُنشر الآن فى البلاغ! قلتُ هادئاً: كلمة (لاترضى) أكبر مما تُقال بالنسبة للدكتور، فأنا أستْفهم عمًّا لا أعلم سرّه فحسب! لقد خُيّل إلىّ أنّ الحديث المتنقّل من غَرضٍ إلى غرض سريعًا بدون رابط واضح، وبدون تحليل متّئد قد يصلحُ أن يكونَ حديثًا للمجلس فقط، أما أن يُنشر على الناس بقلم كاتب كبير، فأنا أبحث عن تعليله.

فقال الدكتور: لقد وقعتَ فى الخطأ حينَ فرّقْتَ بين حديث المجلس، وحديث الجريدة، فالأديب الصادق هُو الذى يكتب كما يتكلّم، وعظمُة الكاتب فى صراحته الواضحة التى تواجه الخصوم برءوس الرّماح!

سكتُّ قليلا، فقال الدكتور: لِمَ لَمْ ترد؟ قلت: لقد كنتَ منذ عشر سنوات تكتبُ (الحديث ذو شجون) بمجلة الرسالة، فكنت تهتّم بصقله وتركيزه وهدفه، لذلك كان القارىء لايمل معاودته، ولكنّ هذا الاهتمام قد تضاءل فيما تكتب بالبلاغ.

فرد الكاتب الكبير يقول: هناك فرقٌ بين زكى مبارك اليوم، وزكى مبارك الأمس، لأن أفكارى تتبدّل بتغير الزمان، لقد وُجِدَ فى فرنسا مذهبٌ يدعو إلى تسجيل الأديب كلّ خواطره كما تفد إلى ذهنه بدون ترتيب، ليعطى القارىء صورة صحيحةً لما يجرى بين أطباق الدم واللحم، وقد اقتنعتُ أخيراً بهذا المذهب، فعدَّلت اتجاهى، إذ كانتْ مقالات الرسالة تخضع إلى سيطرة العقل، فيحذف ويثبت، وإن خالفت ما أحسّ به، أما اليوم فلا.

قلت: إن كلّ كاتب يجب أن يكون للعقل نصيبٌ من توجيهه، والشاعر وهو ذاتى محض، يحتاج إلى عقله فى ترتيب الخواطر، وتصوير المشاعر، ولو تخلّى عنه لما قدّم شيئًا يقرأ؟

صاح الدكتور: عليك أن تفهم أوّلا؟ فتراجعتُ أقول: نعم، ورآنى أحمل (ألحان الخلود) فقال: أى قصيدة أعجبتك؟ فقلُت أكثره رائع، ولكنّى جئتُ لأستفهمَ عن شىء لا أجد لدىَّ تعليلا واضحًا بشأنه. فابتسَم الرّجل قائلا: تفضّلْ. قلت: لا تكادُ تخلو قصيدة من قصائد الديوان بدون مقدمة نْثريّة مسهبة، قد تكوُن مصدر غضبٍ لمن هجوتهم فيها من كبار الكُتّاب فلماذا؟

فردّ الرجل، يقول: إذن لم تقرأ الديوان، لقد قلتُ فى مقدمته إن الشاعر الفرنسى الكبير (لامارتين) كان يقدّم كلّ قصيدة من قصائده الوجدانية بمقدمة تسلط الضوء على مناسبتها، وغوامض اتجاهاتها، وكانت مقدماتُه فى بعض الأحيان أحسن من القصائد نفسها، وهكذا فعلت.

فتجرأتُ فقلت: يضيقُ صدرى ولا ينطلقُ لسانى! فصاح الرجل ولماذا لاينطلق لسانك؟ أمعى كُرباج؟ أنا أعزل ضعيف.

قلت: ياسيدى، قلت إنّ «لامارتين» كان يسلّط الضوء على اتجاهاتِه الوجدانية، ولكنك تجاوزتَ ذلك إلى السبّ العلنى فى أناس كبار!

فصاح: من هؤلاء الكبار؟ السنهورى؟ أحمد أمين؟ على الجارم؟ النقراشى؟ الزيات؟ العقاد؟ كلّهم عندى مزيّفون غير صادقين!

قلت: ولكنك مدحتَهم من قبل فى كُتبك الذائعة، فماذا يقول القارئ إذا فُوجئ بتناقضٍ سافر بين قولٍ وقول؟

قال: أنا أمدح حين أَرْضَى، وأهجو حين أسخط، وذلك سلوكٌ صادق أمين، والذى يثبت على رأى واحدٍ، حجرٌ فى جبل، لايحسّ بتقلب الزمان وعصف الرياح.

وكأنّ الأستاذ الجعلى شاء أن ينهى الحديث، فتطرق إلى موضوع سياسىّ، خاضَ فيه الأديب الكبير بروحه السّاخرة، فأمتعَ وإن لم يقنع! وفارقناه مسرورين.

لقاء تال:

حرصتُ على أن أديم لقائى بالدكتور مبارك، فساقتنى قدماى إلى جريدة البلاغ بعد قرابة أسبوعين، فما أنْ رآنى الرجل الطيّب، حتى نهض مُرَحبًا ومُحتضنًا، فعرفتُ أنّ معارضتى إياه لم تتركْ غير الصدى الجميل فى نفسه، وسألنى: أَيْن ديوان ألحان الخلود؟ فقلتُ هو فى صدرى أحفظ أكثره، قال: وأىّ قصيدة أعجبتك؟ قلتُ: قصيدة بغداد! فقال: الله أكبر! لقد أُعجب بها شاعر العراق الكبير الأستاذ محمد رضا الشبيبى وزير المعارف الأسبق، لأنه ناقد، وضاقَ بها على الجارم الموظف بوزارة المعارف، لأنه حاقد! قلت: القصائد ترتفع عند قوم، وتنخفض عند آخرين، لاختلاف وجهات النظر، فقال الدكتور: من أيْن جاءك هذا الاحتيال، الحق هو الحق، ولن يكون الاختلاف أبدًا فى القصائد الممتازة، ولكنّه يكون فى القصائد المتوسطة التى تحمل القوة والضعف معًا، فيميل قوم إلى الإغضاء عن المحاسن لتجسيم المساوئ، ويميل قوم إلى تضخيم المحاسن ليقضوا

على المساوئ، وقصيدة بغداد، كلها محاسن، وقد حاربها الأستاذ السباعى البيومى فى دار العلوم.

قلت: لقد شهدتُ معركتك الأدبية مع الأستاذ السباعى! قالَ: وماحكمك عليها؟ قلت: السكوت أولى! فأطرقَ الدكتور مبارك، وقال عجبًا: لقد اعترف الناس جميعًا بأنى انتصرتُ فى معاركى مع طه حسين، وأحمد أمين، وأحمد زكى باشا، ولكنّهم يصرّون على أنّ الأستاذ السباعى قد انتصر، وأنا لم أحارب السباعى إلاّ بُرْبع قوّتى، لأنى كنت أشفق عليه!

قلت: ولهذا انسحبتَ أنتَ من المعركة، ففاز هو بالانتصار! قال: إنّ السباعى قد حاز رضا القراء لأنه حاربنى بسلاح الشتم والسبّ، وماكنُت أظنّ أنه يملك هذه الثروة البغيضة من السباب!

سكتّ فلم أنطق! فقالَ: لماذا لا تردّ؟ قلت لنتكلم فى حديث آخر، فصاح مبارك: ولماذا؟ قلت فى هدوء: أخشى أن أغضبك حين أقول إن الذّى بدأ بالسباب ووالى الشتائم هو الدكتور زكى مبارك، وكانَ السباعى مهذّبًا فى مقاله الأول، فلّما رأى النار تحيط به من كل مكان، أوْقدَ نارًا مثلها، فأزعجت الدكتور، وآثر الانسحاب!

قال مبارك: هذا بعضُ الحق، وليس الحق جميعه، لقد حَدَّثَنى الأستاذ محمد خليفة الجعلى أنك من أبناء كلية اللّغة العربية، والسباعى أستاذ بدار العلوم، فلماذا تتعصّب له هكذا، وبين الأزهريين والدرعميِّين ما بين الأوس والخزرج فى الجاهلية؟!

قلت: ولكننّا نحن اليوم فى الإسلام، وأنا أعترفُ بأن معاركك الأدبّية أحلتْ منزلتك لدى القراء، وقد قال الزيات: إنك الملاكم الرياضى بين الأدباء.

اعتراف:

سكت الدكتور مبارك، وأخرج من جيبه ورقة أخذ يقرؤها، فهممتُ بالانصراف، ولكنه ضغط على يدى التى قدمتها للمصافحة قبل الخروج، وصاح:

اجلس، اجلس - سأعترف لك بشيء خطير، خطير جداً، أرجو أن تذيعه، وتسجله علي.

لقد قلتَ إن معاركي الأدبيّة هي التي أعلت منزلتي لدى القراء، وهذا حق، ولكنّ هذه المعارك هي التي حرمتني حقّي في بلدي، لقد نلت ثلاث دكتوراهات من الشرق والغرب، وطمعتُ أن أكون أستاذاً بكلية الآداب مثل الذين لم يحملوا أية دكتوراه، وليس لهم سلاحٌ غير الخضوع والاستسلام، فأخذوا يترقون في السلك الجامعي وهم تلاميذ بالنسبة إليّ، وقُضِي على أن أظلّ بوزارة المعارف، فقبلتُ على مضض، ثم استُكْثر على أن يدُومَ لي التفتيش بالوزارة، ففصَلَني السنهوري، والسبب كلّه كلمة الحق التي أزعجتْ أمثال طه حسين والسنهوري والجارم والنقراشي والقباني! أنا شهيد الحق! والناس يعرفون ويسكتون!

قلت: نعم إننا نعرف هذا كله، ولكننا لن نسكت، كما لم يسكت المنصفون من أمثال منصور فهمي، والمازني، وعبد القادر حمزه، وحسبك بهم من أنصار ! واستأذنت إلى غير لقاء.

***